الشيطان . . .

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

قال الشيخُ أبو الحسن بن الدقّاق : كان شيخي أبو عبد الله محمد « الأزهريُّ العجميُّ » — رضي الله عنه — رجلاً صاحبَ آياتٍ وخوارق مما فوقَ العقل ، كأنما هو سرٌّ من الأسرار الجارية في هذا الكون ، قد بلغ بنفسه رتبةَ النجم في أُفُقِه البعيد ؛ ففيه أهواءُ الانسان وشهواتُه وطباعُه ، إلا أنها كنور النجم في تألُّقِه ولألائه من إشراق روحه وصفائها ؟ وقد ارتفع بآدميته فوق نفسها ؛ فأصبح في الناس ومعه سماؤُه ، يجعلُها بين قلبه وبين الدنيا

والرجل إذا بلغ هذا المبلغ كان حياً كالميت ساعةَ احتضاره ؛ ينظرُ إلى كل ما في الحياة نظرةَ من يتركُ لا من يأخذ . ومن يعتبرُ لا من يَغترّ ، ومن يلفظ لا من يَتذوّق ، ومن يُدرك السرَّ لا من يتعلق بالظاهر . ويرى الشهواتِ كأنها من لغة لا يعرفها ، فهي ألفاظ فيها معاني أهلها لا معانيه ، وإنما تلبسُ كلماتُنا معانيها من أنفسنا . وفي النفوس مثلُ الهشيم ؛ إذا وقعت فيه المعاني المشتعلةُ استطار حريقاً وتَضرّم ، وفيها على المجاهدة مثل الماء ؛ إذا خالطته تلك المعاني انطفأتْ فيه وخمدت

وقد سألتُ الشيخ مرة : كيف تحدثُ الكراماتُ والخوارق للأنسان ؟ فقال : يا ولدي ، إن الانسان من الناس المحجوبين يتصرّف في جسمه ولا يكاد يملكُ لروحانيته شيئاً ، فاذا أبلَى في المجاهدة ووقع في قلبه النور ، تصرّف في روحانيته ولا يكاد يملكُ لجسمه شيئاً ، فمن أطاق أن يَنْسلخ من بشريته ، واتسعت ذاته في معاني السماء بمقدار ما ضاقت من معاني الأرض ، وكان مُعداً لأن يتحققَ في روحانيته ، مُعاناً على ذلك بطبيعةٍ فوق الاعتدال — فقد شاع في الكون وأصاب له وجهاً ومذهباً إلى تلك القوة التي تهدم في العالم وتبني ، وتفرّق وتجمع ، وتنقل الصُّوَرَ بعضها إلى بعض ؛ فان الكون كلّه جوهرٌ واحد هو النور . حتى الجبلُ هو نورٌ صخريّ ، وحتى البحر هو نور مائيّ ، وحتى الحديدُ والذهبُ والتراب ، كلُّ ذلك نور(1) صرّفته القدرةُ الآلهية تصريفها المعجز ، فكان على ما نرى : ظاهرٌ مخيّلٌ بلائم نقصنا وعجزنا ، وحقيقةٌ قارّةٌ على غير ما نرى . ومن ذا يعقل أن الصخر نورٌ متجمدٌ إذا لم يكن له إلا عقلُ عينه وحواسّه ، ومن ذا يُطيق أن يفهم بحواسه وعينه قولَ الله تعالى : « وترى الجبالَ تحسَبُها جامدةً وهي تمرُّ مَرَّ السحابِ صُنْعَ اللهِ الذي أتْقَنَ كلَّ شيء . » ؟ فالجبالُ جامدةٌ ثابتة ، غير أنها تمرُّ بأرضها وتموج في نفسها ؛ ومتى تأذَّنَ الله أن ينكشف نورُ كلامه للعقل الانسانيّ ، فستكون هذه الآية علماً جديداً في الأرض يُثبت أن السحاب والجبلَ مادةٌ واحدة وصُنعٌ واحد

ويالها سُخريةً بالانسان وجهله ! فانه إذا كانت الحقيقةُ غير ما نرى ، فكل شيء في الدنيا هو ردٌّ على النظر الانسانيّ ، ويكاد الجبلُ المظيم يكون كلمةً عظيمةً تقول للانسان : « كذَبْتَ ! »

فالشأنُ في الخوارق والكرامات راجعٌ إلى القدرة أن يسلّط الانسانُ الروحانيُّ ما فيه من سر النور على ما في بعض الأشياء من هذا السر ، وتلك هي طاعةُ بعض الكون لمن ينصرفُ عن المادة ويتصل بخالقها

فاذا بقي في الرجل الروحانيِّ شيءٌ من أمر جسمه يقول : « أنا ... » لم يكن في الرجل من تلك القدرة ذرة ؛ فان هو حاول أن يخرق العادة أبى الكون أن يعرفه إلا كما يعرف حجراً مُلقىً يحاول أن يتصرّفَ بالجبل الذي هو منه فينقله أو يزحزحه أو يزلزله

ولا خير على الأرض مطلقاً إلا وهو أخذٌ من حقوق هذه الـ « أنا . . . » في إنسانها ، ولا شرٌّ على الارض مطلقاً إلا وهو إضافةُ حقوق اليها ؛ ففين لا يبقى له حقٌّ في شيء عند نفسها ، يجب لها الحق على كل شيء . وهذه هي الكرامة ؛ تُكرِمُ الخليقةُ مَن أكرمه الخالق

فمن أراد أن تتصل نفسُه بالله فلا يكنْ في نفسه شيءٌ من حظ نفسه ، ولا يؤمن إيمان هؤلاء العامة : يكون إيمانُهم بالله فكرةً تذكر وتُنسى ، أما عملهم فهو إيمانهم الراسخُ بالجسم وشهواته يُذكر ولا يُنسى .

---

(1) كلمة (النور) هذه هي التي يعبر عنها اليوم بالكهرباء ، وقد ثبت أن الكون كله هو هذه الكهرباء متجمدة على ما شاء الله أن تكون

وأنت ترى رجالَ الروح يأكلون ويشربون ويلبسون ، ولكن هذا كله ليس فيه ذرة من أرواحهم ، على خلاف غيرهم من الناس ؛ فهؤلاء كلُّ أرواحهم فى مطاعمهم ومناعمهم ؛ ومن ثَمَّ لا يجرى الشيطان من الأوّلين إلا فى مجارٍ ضيقة أشد الضيق لا يكاد ينفذُ منها إلى فكر أو شهوة أو حُلم من أحلام الدنيا ، أما الآخرون فالشيطان فيهم هو تيار الدم يَعبُّ عُبابُه فى الأسفل والأعلى

* * *

قال أبو الحسن : وكنا يومئذٍ فى دمشق ، فنبهنى كلامُ الشيخ عن الشيطان إلى ما قرأتُه عن كثيرين ممن رأوا الشيطان أو حاوروه أو صارعوه ؛ فقلت للشيخ : إن من حقك علىّ أن أسألك حق عليك ، وما فى نفسى أحب إلى ولا أعجب من أن أرى الشيطانَ وأكلمه وأسمعه ؛ وأنت قادرٌ أن تنقلنى اليه كما نقلتنى إلى ما دخلت بى عليه من عوالم الغيب

قال الشيخ : وماذا يردُّ عليك أن ترى الشيطان وتكلمه ؟

قلت : سبحان الله ! لا يُجدى علىّ شيئاً إلا أن أسخر منه

قال الشيخ : فانى أخشى — ياولدى — أن يكون الشيطان هو الذى يريد أن تراه وتسمعه . . . !

قلت : فانى أريد أن أسأله عن سره ، فيكون علماً لا سخرية

قال : لو كشف لك عن سره لما كان شيطاناً ، فانما هو شيطان بسره لا بغيره

قلت : فأريد أن أرى الشيطان لأكون قد رأيت الشيطان !

قال الشيخ : لاحول ولا قوة إلا بالله ! لو كنت ياأبا الحسن بأربع أرجلٍ لهربت من الشيطان بثلاثٍ منها وتركته يجرك من واحدة !

قلت : ياسيدى ، فلو كنت حماراً لبطل عملُ الشيطان فى أرجلى الأربع كلها ، إذ لاحاجة به الى إغواء حمار !

فتبسم الشيخ وقال : ولابد أن ترى الشيطان وتكلمه ؟

قلت : لابدّ

قال : إنه هو يقولها ، فَنَعَم !

* * *

قال أبو الحسن : وكان الشيخ إذا مشى الى أمرٍ خارق بقيتُ معه غائبـــاً عن الحس ، كأنه يُبطل منىّ ما أنا به أنا ، فأصبحُ ظِلاً آدمياً معلقاً به . ولاتقع الخوارق إلا ان وجد القوة المُكمِّلة لروحه ، وهذه القوة تُستمدُّ من الشيخ الواصل ، فلا بد من إمام يأخذ عن إمام ، كأنها سلسلةٌ نفسيةٌ متميِّزةٌ فى الأرض ، فتتغير الواحدةُ منها بالواحدة إذ تقع فى جوّها فتورق وتثمر ؛ كالشجرة جوٌّ يكسوها وجوٌّ يذبلها وجوٌّ يسلبها سلباً ، وكذلك تفعل النفس إذا كان لها جوّ

وخرجنا من دمشق وأنا خلف الشيخ كالمحمول ، فرأيتُنا وقد أشرفنا على بناء عظيم ، ورأيتُ أقواماً يتَلقون الشيخ ويسلمون عليه ويتبرّكون بمقدَمِه ؟ فأنكرتُهم نفسى ووجدتُ منهم وحشة ، فالتفتَ الىّ الشيخ وقال : هؤلاء قوم من الجنّ ، وما اليهم قَصَدنا فلا تشتغلْ بما ترى واشتغل بى

ثم ننتهى الى البناء العظيم ، فتستقبلُنا طائفةٌ أخرى ، ويُدخلون الشيخَ وأنا خلفه ، ويمرُّون بنا على دنيا مخبوءةٍ تعجز الوصفَ مما لاعينٌ رأتْ ، ولا أذنٌ سمعت ؛ فيقولون : هذه كنوزُ سليمان وذخائره ، ويطوفون بالشيخ يعرضونها عليه كنزاً كنزاً ؛ فرأينا ثمّ نعيما ومُلكا كبيراً ، ثم انتهينا آخراً الى مغارة خسيفة كأنها عِرقٌ من عروق جسم الأرض ، يتفجرُ منها دوىٌّ كالرعد القاصف إلا أنه فى السمع كخوار الثور ، إلا أنه ثورٌ خُيلَ الىّ أن رأسه فى قدر جبلٍ عظيم ، يتماق به غبغب[1] فى قدر جبلٍ آخر ، على جسم يسدُّ الخافقين ، فخواره كأنه صراخ الأرض ، وإذا أنا بأقبح مكان منظراً ، وأنتنه ريحاً ، كأنه سجنٌ بناؤه من الجِيَف

فقلت : ما هذا ؟ قالوا : هـذا سجنُ إبليس ، وهو هنا فى هذه المغارة منذ زمن سليمان عليه السلام

قلت : أفمسجونٌ هو ؟

قالوا : وإنه مع ذلك مُوقَرٌ بأمثال الجبال حديداً يَرْبِضُ به فى مَحبسه ، فلا يتزحزحُ ولا يتحلحل

قلت : وإنه مع ذلك قد ملأ الدنيا فســاداً ، فكيف به لو كان طليقاً ؟

(١) غبغب الثور وغببه : ما تدلى من لحم ذقنه من أسفل

قالوا : فلو أنه كان طليقاً لاستحوذ على الناس كافة فيجتمع أهلُ الأرض على شهوةٍ واحدة لاشيء غيرُها ، فيبطلُ مع هذه الشهوة الواحدة كلُّ تدبير بينهم ، فلا تقومُ لهم سياسة ولا يكون بينهم وازع ، فيرجمون كالكلاب أصابها الكَلَبُ وهاج بها ، فأنيابها فى لحمها ، لايزال يَعضُّ بعضُها بعضاً ، فليس لجميعها إلا عملٌ واحدٌ يُسلمها الى الهلاك ، ويصبح ظهرُ الأرض أعرَى من سَراة أديم

وإنما يَصلُح الناسُ باختلاف شهواتهم وتنافرها وتنازعها ؛ فبعضها يحكم بعضاً ، وشيء منها يَزَعُ شيئاً ، ومن تخلص من زَوَقَمعِ بهازوةأخرى ، كالمتزوج المحصَن ، يحكم بالجلد والرجم على من ليست له امرأةٌ فزنا ؛ وكالغنيّ الواجد ، يحكم على اللصّ الذى لم يجد فسرق ، وهلم جراً . وما يَنشأ الناسُ فى ثلاثة أعمار فيشِبُّون ويكتهلون ويهرمون ، إلا لتختلف شهواتهم وتختلف مقادير الرغبة فيها ، فتتحقق من ثمّ تلك الحكمة الالٓهية فى التدبير ، ويجد الشرعُ محله بينهم ، كما يجدُ العصيان بينهم محله

.ولو أن أمةً كلها أطفالٌ أو كهول أو شيوخ لبادت فى جيل واحد ، وإنه ليس أسمجَ من الرذيلة تكون وحدها فى الأرض إلا الفضيلةُ تكون وحدها ، فلا بدّ من شيء يظهرُ به شيء غيره ، كالضد والضد . والمعركة إذا انتصر كلُّ من فيها كانت هزلاً وكانت شيئاً غير المعركة

قال أبو الحسن : وقلت لهم : فاذا كان الشيطان سجيناً قد ربَضت به أثقاله حتى لهو فى سجنٍ من سجنٍ مبالغةً فى كفّه والتضييق عليه — فكيف يَفتن الناسَ فى أرجاء الأرض ويوسوس فى قلوبهم ، حتى لَهو يد بينٌ كل يدين ، وحتى لَهو العين الثالثة لعيني كلّ انسان ؟

قالوا : إن فى روحه الناريّة قوةً تَنفصل منها وتنتشر فى الأرض ، كشعاع الشمس من الشمس ، هذه كُرَةٌ ناريةٌ ميّتة معلّقة على الأجسام مُرصدة لها ، وتلك كرة نارية حيّة معلقة على النفوس مرصدة لها ، وبهذه وتلك عَمارُ الدنيا وأهلِ الدنيا

قلت : لعلكم أردتم أن تقولوا : « خراب الدنيا وأهلِ الدنيا » فغلطتم فكان ينبغى أن يجيء بدل الغلط . . . . .

فقال أحدهم : يا أبا الحسن ، خَرَق الثوبُ المسمار . جاز هنا لأمن اللَّبْس أن يكون المفعول به وهو الثوب مرفوعاً وفاعله وهو المسمار منصوباً ، هل جئت — ويحك — تطلبُ النحو أو تطلب الشيطان . . . . . ؟

* * *

قال أبو الحسن : فقطمني الجنىّ (والله) وأخجلني ، ونظرت خلسة الى الشيخ أراه كيف يسخر منى ؛ فاذا الشيخ قد امّاسَ فلا أراه ، وإذا أنا وحدى بين الجنّ وبازاء هذا الساخر الذى وُضِعَت عينه فى جبهته وشُق فمه فى قفاه ... ! فَذُمِرّىَ عنى وزال ما أجده ، وقلت فى نفسي : الآن أبلغ أرَبى من الشيطان ويكون الأمر على ما أريد فلا أجد من أحتشم ولا تَقطَعُني هيبة الشيخ . . . . . !

ووقع هذا الخاطر فى نفسي ، فاستعذت بالله ولعنت الشيطان وقلت : هذه أول عبثه بى وجعله إياى من أهل الرياء ، كأن لى شأناً فى حضور الشيخ وشأناً فى غيابه ، وكأنى منافق أعان غير ما أسِر ، وقلت : إنا لله ! كدت يا أبا الحسن تتشيطن !

ثم هممتُ أن أنكِصَ على عقبيّ ، فقد أيقنتُ أن الشيخ إنما تخلّى عنى لأكونَ هنا بنفسى لا به ، وما أنا هنا إلاّ به لا بنفسى ، فيوشك إذا بقيتُ فى موضعى أن أهلِك ! بَيْد أن المفاوة انكشفت لى فجأة ، فما ملكتُ أن أنظر ؛ ونظرتُ فما ملكتُ أن أقف ، ووقفتُ أرى ، فاذا دخانٌ قد هاج فارتفع يثور ثَوَرَانه حتى تملأ المكان به ، ثم رقّ ولطُفَ

واستضرَمت منه نارٌ عظيمة ، لها وَهَجانٌ شديدٌ يضطرم بعضُها فى بعض ، ويُسمَع من صوتها ممَممة قوية ثم خَمَدَت

وانفجرَ فى موضعها كالسدّ المنبثقِ من ماءٍ كثيف أبيضَ أصفرَ أحمرَ ، كأنه صديدٌ يتقيّح فى دمٍ ثم غاض

وتَنبّمتْ فى مكانه حَمأةٌ منتنةٌ جعلتْ تَربو وتعظمُ حتى خِفتُ أن تبتلعَني وأذهبَ فيها ، فسميتُ الله تعالى فغارت فى الأرض

ثم نظرتُ فاذا كلبٌ أسودُ مُحمّرٌ الحمالّيق هائلُ الخلقة مستأسِد ، قد وقف على جيفةٍ قذرة غاب فيها خَطمُه يعُبُّ مما تسيل به

فقلت : أيها الكلب ، أأنت الشيطان ؟

وأنظرُ فاذا هو مَسْخٌ شائه كأنه إنسانٌ في بهيمة قد امتزجا وطغى منهما شيءٌ على شيء ، أما وجهه ، فأقبحُ شيء منظراً ، تحسبُه قد لَبِس صورةَ أعماله . . . ونطق فقال : أنا الشيطان !

قلت : فما تلك الجيفة ؟

قال : تلك دنياكم في شهواتها ، وأنا ألتقمُ قلب الفاسق أو الآثم منكم ، كما ألتقم دودةً من هذه الجيفة

قلت عليك لعنةُ الله وعلى الفاسقين والآثمين ، فكيف كنتَ دخاناً ، ثم انقلبتَ ناراً ، ثم رجعتَ قيحاً ، ثم صرتَ حمأة ، ثم كنت كلباً على جيفة ؟

قال : لا تلعن الفاسقين والآثمين ؛ فانهم العبّاد الصالحون . بأحد المنيين ، وأنت وأمثالك عُبّاد صالحون بالمعنى الآخر ، أليس في الدنيا حياءٌ ووقاحة ؟ فأولئك — يا أبا الحسن — هم وقاحتي أنا على الله ! أنا معكم في زهدكم حرمانُ الحرمان ، وفقرُ الفقر ، ولقد أهلكتموني بؤساً ؛ غير أني معهم لذّة اللذة ، وشهوةُ الشهوة ، وغنى الغنى ، لا تتمُّ لذة في الأرض ولا تحلو لذائقها وإن كانت حلالاً ، إلا إذا وضعتُ أنا فيها معنىً من معانيّ أو وقاحةً من وقاحتي ؛ حتى لأجمل الزوجة لزوجها مثل الشعر البليغ إذا استعار لها معنى مني ، وكلُّ ما فسدت به المرأة فهو مجازي واستعارتي لها أجملها به بليغة . . . .

وأنتم يا أبا الحسن تقطعون حياتكم كلها تجاهدون إثمَ ساعة واحدة من حياة عبّادي ، فانظر — رحمك الله — لئن كانت ساعةٌ من حياتهم هي جهنّمكم أنتم ، فكيف تكون جهنم هؤلاء المساكين ؟

إنك رأيتني دخاناً لأني كذلك أنبعثُ في القلب الأنساني فمتى تحركتُ فيه حركةَ الشر كنت كالاحتيال لأضرام النار بالنفخ عليها . فمن ثمّ أكون دخاناً ، فاذا غفل عني صاحبُ القلب تضرّمتُ في قلبه ناراً تطلب ما يطفئها ؛ ثم يُواقع الأثم والمعصية فتهمّته فأبردُ عن قلبه ، فيكونُ في قلبه مثل الحرق الذي بردَ فتأكل موضعه فتقيّح ، ثم يختلط قبح أعماله بمادته الترابية الأرضية ، فينقلب هذا المسكين حمأةً إنسانية لاتزال تربو وتنتفخ كما رأيت

قلت : أعوذ بالله منك ! أفلا تعرف شيئاً يردّك عن القلب وأنت دخانٌ بعد ؟

فقهقه اللعين وقال : ما أشدّ غفلتك يا أبا الحسن ، إذ تسأل الشيطان أن يخترع التوبة ! أما لو أن شيئاً يخترع التوبة في الأرض لاخترعها القبرُ الذي يدفن فيه بعضُكم بعضاً كلَّ طرفة عين من الزمن فتُنزلون فيه الميتَ المسكين قد انقطع من كل شيء ، وتتركونه لآثامه ، وحساب آثامه ، والهلاك الأبديّ في آثامه ؛ ثم تعودون أنتم لاقتراف هذه الآثام بعينها !

قلت : عليك وعليك أيها اللعين ؛ ولكن ألا يتبدّد هذا الدخان إذا ضربته الريح أو انطفأ ما تحته ؟

قال : أوّه ! لقد أوجعتَني كأنما ضربتني بجبل من نار ، إن نبيّكم عرفها ، ولكنكم أغبياء ، تأخذون كلامَ نبيكم كأنما هو كلامٌ لا تحمل ، وكأنه كلامُ إنسان في وقته لا كلامُ النبوة للدهر كلّه وللحياة كلّها . ولهذا غلبتُ أنا الأنبياء على الناس ، فاني أضع المعانيَ التي تعمل ، لا الحكمةَ المتروكةَ لمن يعمل بها ومن لا يعمل

أتدرى يا أبا الحسن ، لماذا أعجزني أسلافكم الأولون مثل : عُمر وأبي بكر ؟ حتى كان إسلامهم من أكبر مصائبي ، فتركوني زمناً — وأنا الشيطان — أرتابُ في أني انا الشيطان . . . ؟

قلت : لماذا ؟

قال : أراك الآن لم تلعن ، فلستُ قائلها إلا إذا ترحّمتَ عليّ

قلت : عليك وعليك من لعنات الله ! قل لماذا ؟

قال : أسائلٌ وبأس ؟ وطُفيليٌّ ويقترح ؟ لابد أن تترحم !

قلت : رحمنا الله منك ! قل لماذا ؟

قال : وهذه لعنةٌ في لفظة رحمة . لا ، إلا أن تترحّم عليّ أنا إبليس الرجيم !

قلت : فيُغني اللهُ عن علمك ؟ لقد ألهمتنيها روحُ النبيّ صلى الله عليه وسلم . إن النبوّة كانت هي بأعمالها وصفاتها تفسير الألفاظ على أسمى الوجوه وأكملها ، فكان روحُ النبي صلى الله عليه وسلم لتلك الأرواح كالأم لأبنائها . وقد رأوه لا يغضب لنفسه

ولا لحظ لنفسه ، وذلك لا يستقيم إلا بالقصد فى أمر النفس ، وجمل ناحية الاسراف فيها إسرافاً فى العمل لسعادة الناس . وكلما ارتدّ الانسانُ لنفسه وحظوظها ارتدّ إليك — أيها الامين — وأقبل على شقاء نفسه ، وكلما عمل لسعادة غيره ابتعد عنك — أيها الرجيم — وأقبل على سعادة نفسه ، وتركُ الغضب وحظوظِ النفس هو الصبر ؛ وصبرُ الأنبياء والصدّيقين ليس صبراً على شيء بعينه فى الحياة ، بل هو الصبرُ على حوادث العمر كلّه ؛ كصبر المسافر ؛ إن كان عزيمةً مدةَ الطريق كلها ، وإلا كان فساداً فى القوة ووقع به الخذلان

فهذا الصبر المُعتزمُ المصمِّم ، الذى يُوطِّن به الرجلُ نفسه أن يكون رجلاً إلى الآخر — هو تعبُ الدنيا ، ولكنه هو رَوْحُ الجنة مع الانسان فى الدنيا . والمؤمنُ الصابر رجل مُقفَلٌ عليه بأقفال الملائكة التى لا يفتحها الشيطانُ ولا تفتحها مصائبُ الدنيا . ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم : « إن المؤمنَ يُنضِي شيطانَه كما يُنضِي أحدُكم بعيرَه فى سفره . » كأنه يقول : لو لم يصبر المسافر دائباً معتزماً مدةَ سفره كلها لما أنضَى بعيرَه ، ولو لم يصبر المؤمنُ دائباً معتزماً مدة حياته كلها لما أنضى شيطانَه

فصاح الشيطان : أوّه ، أوّه ! ولكن قل لى يا أبا الحسن ، ما صَبرُ رجلٍ مؤمنٍ قوىّ الايمان ، قد استطاع بقوة إيمانه أن يُفيقَ من سُكْر الغنى ، فتخلّص من نزوات الشياطين الذهبيةِ الصغيرة التى تسمُّونها الدنانير ؛ وقد أردتُه على أن يكذب ، فرأى الايمانَ أن يَصدق ، وجهدتُ به أن يغضب ، فرأى الحكمةَ أن يهدأ ؛ وحاولتُ منه أن يطمع ، فرأى الراحةَ أن يرضَى ؛ وسوّلتُ له أن يحسد ، فرأى الفضيلةَ ألاّ يبالى . وأخذ لنفسه من كل شيء فى الحياة بما يثق أنه الايمانُ والصبرُ والهدوء والرضى والقناعة ؛ وأحاط نفسَه من هذه الأخلاق بالسعادة القلبية واجتزأ بها ؛ وقَصَر نظرَه على الحقيقة ، ووجد الجمالَ فى نفسه الطيّبة الصافية ، وأجرَى ما يؤلمه وما يَسرُّه مجرًى واحداً ، ونظر إلى العمر كله كأنه يومٌ واحد يَرْقُبُ مغربَ شمسه ؛ وأخذ من إرادته قوةً أنستْه مالم تُعطِه الدنيا ، فلم يَحفِل بما أعطت الدنيا وما مَنعتْ ؛ وعاش على فقره بكل ذلك كما يعيش المؤمن فى الجنة : هذا فى قصر من لؤلؤة أو ياقوتة أو زَبَرْجَدة ، وذاك فى قصر من الحكمة أو من الايمان أو من العقل

قال الشيطان : فلما أعجزنى صلاحاً ورضى وصبراً وقناعةً وإيماناً واحتساباً ، وكان رجلا عالماً فقيهاً — سوّلتُ له أن يخرج إلى المسجد ليعظ الناسَ فينتفعوا به ، ويُبَصِّرهم بدينهم ، ويتكلمَ فى نَصِّ كلام الله ؛ فَعقَد المجلس ووَعَظ ، وانصرفوا وبقى وحده ؛ فجاءت امرأة تسأله عن بعض ما يحتاج إليه النساء فى الدين من أمر طبيعتهن ؛ وكانت امرأةً جَزْلةً غَضّةً ، يهتزُّ أعلاها وأسفلُها، وتمشى قصيرةَ الخَطْو مُتثاقلةً كالمتضايقة من تَحمّل أسرار جمالها وأسرار بدنها الجميل ، فبَعضُ مشيتها يَقَظةٌ وبعضها نومٌ فاترٌ تخالطه اليقظة ؛ ولا يراها الرجل الفَحْل التامُّ الفُحولة إلا رأى الهواءَ نفسَه قد أصبح من حولها أنثى مما تصيفُ به ريحها العَطِرة عِطْرَ زينتها وجسمها . وكان الواعظ قد تَرمَّل من أشهر ، وكانت المرأة قد تأيّمتْ من سنوات ؛ فلما رآها غضَّ طرفَه عنها ، ولكنها سألته بألفاظها العذبة عن أمور هى من أسرار طبيعتها ، وسألته عن طبيعتها بألفاظها ؛ فسمع منها مثلَ صوت البلّور يتكسّر بعضه على بعض وتحدّثت له وكأنها تتحدث فيه ؛ فسمع بأذنه ودمه ؛ ثم كان غَضُّ عينه أقوى لرؤية قلبه وجَمْع خواطره . ورأى صوتَها يشتهى ؛ وعانقته رائحتها العطرية النفّاذة ؛ وأحاطته بجوٍّ كجوّ الفِراش ؛ وعادت أنفاسُها كأنها وسوسةُ قُبَل ، وصارت زَفراتها كالقِدر إذا استجمعتْ غليانا ، وطلعتْ فى خياله عُريانةً كما تطلع للسكران من كأس الخمر حوريةٌ عريانة ، لها جسمٌ يبدو من اللّين والبَضاضة والنَّعْمة كأنه من زَبَد البحر ؟

قال أبو الحسن : وكنتُ كالنائم فما شعرتُ إلا بصوتٍ كصَكِّ الحجر بالحجر ، لا كتكسّر البلور بعضه على بعض ، وسمعت شيخى يقول :

أفسقتَ . . . ؟

طنطا

مصطفى صادق الرافعى